

الكشاف

ومنه قوله : " وتركهم في ظلمات " أصله : هم في ظلمات ثم دخل ترك فنصب الجزأين .
والظلمة عدم النور . وقيل : عرض ينا في النور . واشتقاقها من قولهم : ما ظلمك أن تفعل
كذا : أي ما منعك وشغلك لأنها تسد البصرو تمنع الرؤية . وقرأ الحسن " ظلمات " بسكون اللام
وقرأ اليماني " في ظلمة " على التوحيد . والمفعول الساقط من " لا يبصرون " من قبيل
المتروك المطرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال لامن قبيل المقدر المنوى كأن الفعل غير
متعد أصلا نحو " يعمهون " في قوله : " ويذرهم في طغيانهم يعمهون " الأعراف : فإن قلت :
فيم شبهت حالهم بحال المستوقد قلت : في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورطوا في حيرة
 . فإن قلت : وأين الإضاءة في حال المنافق وهل هو أبدا إلحائرا خابط في ظلماء الكفر قلت :
المراد ما استضاءوا به قليلا من الانتفاع بالكلمة المجرة على ألسنتهم ووراء استضاءتهم
بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد .
ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم وما افترضوا به بين
المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق والأوجه أن يراد الطبع لقوله : " صم بكم عمى " . وفي
الآية تفسير آخر : وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل
ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ماحول المستوقد والضلالة التي اشتروها وطبع بها
على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات . وتنكير النار للتعظيم . كانت
حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الإضاءة إلحاق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وأن
ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها
للإحساس والإدراك كقوله : .
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا .
أصم عما ساءه سميع .
أصم عن الشيء الذي لا أريده ... وأسمع خلق الله حين أريد .
فأصممت عمرا وأعميته ... عن الجود والفخر يوم الفخر .
فإن قلت : كيف طريفته عند علماء البيان قلت : طريقة قولهم " هم ليوث " للشجعان وبحور
للأسخياء . إلا أن هذا في الصفات وذاك في الأسماء وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات
والأفعال جميعا . تقول : رأيت ليوثا ولقيت صما عن الخير ودجا الإسلام . وأضاء الحق . فإن
قلت : هل يسمى ما في الآية استعارة قلت : مختلف فيه . والمحققون على تسميته تشبيها
بليغا لا استعارة لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون . والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى

ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلوا عنه صالحا لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه
لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام كقول زهير : .
لدى أسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد أطفاره لم تقلم .
من ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحا . قال
أبو تمام : .
ويصعد حتى يظن الجهول ... بأن له حاجة في السماء .
وبعضهم : .
لاتحسبوا أن في سرباله رجلا ... ففيه غيث وليث مسبل مشبل .
وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فأتسلق بذلك إلى تسميته
استعارة لأنه في حكم المنطوق به نظيره قول من يخاطب الحجاج : .
أسد علي وفي الحروب نعمة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر .
ومعنى " لا يرجعون " إنهم لا يعودون بالهدب بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها
تسجيلا عليهم بالطبع أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم لا
يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وكيف يرجعون إلى حيث ابتدءوا منه .
" أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في إذانهم من الصواعق حذر
الموت وإِـ محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم
عليهم قاموا ولو شاء إِـ لذهب بسمعهم وأبصارهم إن إِـ على كل شئ قدير " ثم ثنى إِـ سبحانه
في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف وإيضاح غب وإيضاح . وكما يجب على البليغ
في مظان الإجمال والإيجاز أن يجل ويوجز فكذا الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن
يفصل ويشيع . أنشد الجاحظ :